شهر رمضان في الخطاب الشعري العباسي

أ.د. ثائر سمير حسن الشمري
كلية التربية الأساسية /جامعة بابل

The change of the month of Ramadan in the Abbasid poetry discourse

Prof. Thaer Samir Hassan Al - Shammari
Faculty of Basic Education / Babylon University
Thaersamer1973@gmail.com

Abstract:

What we have found in the Abbasid poetry regarding the month of Ramadan is surprising, and leads to surprise. What we got from the poetic texts was on the creative expectation. Many of the Abbasid poets took negative attitudes towards it, which led to a strange paradox between their positions and the virtues of this. Month, but our surprise began to fade when we know the poets owners of those texts, made them who knew the lack of piety and intimidation, they who saw the Islamic religion an obstacle to them; because he forbade what they love the practice of sins, and the commission of sins.

Keywords: Ramadan, Abbasid poetry, Abbasid poets

الملخص:

إنّ ما وجدناه في الشعر العباسي بخصوص شهر رمضان يثير العجب، ويؤدّي إلى الاستغراب، فما حصلنا عليه من النصوص الشعرية كان على خلاف التوقّع، فكثير من الشعراء العباسيين اتخذوا مواقف سلبية منه، ممّا أدّى إلى حدوث مفارقة عجيبة بين مواقفهم التي صرّحوا بها، وفضائل هذا الشهر، إلّا أنّ استغرابنا بدأ يتلاشى حين تعرّفنا الشعراء أصحاب تلك النصوص، فجلُّهم ممّن عُرِفُوا بعدم التقوى والورع، فهم ممّن رأوا الدين الاسلامي عائقاً أمامهم ؛ لكونه نهى عمّا يحبّون ممارسته من الكبائر، وارتكاب الذنوب .

الكلمات المفتاحية: شهر رمضان، الشعر العباسي، الشعراء العباسيون

المقدمة:

يمتلك شهر رمضان قدسية خاصة لدى المسلمين، فهو الشهر الذي أنزل فيه الله (سبحانه وتعالى) كتابه العزيز **﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾**(١)، فضلاً عن أنّه الشهر الذي يصوم فيه المسلمون عن الطعام والشراب وأمور معروفة أُخَر، وذلك بأمر إلهي **﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾**(٢)، ولم يكن الصيام لدى المسلمين أمراً جديداً ؛ لأنه كان مفروضاً على الناس في الأديان التي سبقت الدين الاسلامي، لذا كان لزاماً على

المسلمين الصيام كما صام غيرهم ممّن سبقوهم زمنياً، وذلك ما أفاده القرآن الكريم بأمر الله تعالى **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾**[٣]، وهو شهر الطاعة ومغفرة الذنوب، لذا نراه محلّ تقديس كبير من لدن المسلمين.

غير أنّ ما وجدناه في الشعر العباسي بخصوص هذا الشهر الفضيل يُثير العجب، ويؤدّي إلى الاستغراب، فما حصلنا عليه من النصوص الشعرية كان خلاف التوقّع، فكثير من الشعراء العباسيين اتخذوا مواقف سلبية منه، ممّا أدّى إلى حدوث مفارقة غريبة بين مواقفهم التي صرّحوا بها وأعلنوا عنها، وفضائل هذا الشهر، إلّا أنّ استغرابنا بدأ بالتلاشي حيت تعرّفنا الشعراء أصحاب تلك النصوص، فجلُّهم ممّن عُرِفُوا بعدم التقوى والورع، فهم ممّن رأوا الدين الاسلامي عائقاً أمامهم ؛ لكونه نهى عمّا يحبون ممارسته من الكبائر وارتكاب الآثام والذنوب.

وبالمقابل حصلنا على كثير من النصوص الشعرية التي أفاد أصحابها من شهر رمضان، واستثمروه في بعض الأغراض الشعرية، بمعنى أنّهم وظّفوا الشهر توظيفاً قد يكون ايجابيّاً في بعض الأحيان، وقد يصبح سلبيًّا في أحايين أُخَر.

لذا آثرنا دراسة موضوع البحث على وفق محورين فقط، يهتمّ المحور الأوّل بدراسة النصوص الشعرية التي شكا فيها الشعراء من الصيام في هذا الشهر، الأمر الذي دعا بعضهم إلى هجائه من دون أيّ خوف من الله(سبحانه وتعالى)، ومن دون حياء كما سنرى.

أمّا المحور الثاني، فخصّصناه للنصوص الشعرية التي استثمر فيها أصحابها شهر رمضان، وضمّنوه في أغراضهم الشعرية لغايات مختلفة، ستتّضح لنا فيما سيأتي من البحث.

المحور الأول– الشكوى من الصيام وهجاء الشهر:

إنّ المطّلع على النصوص الشعرية المتعلقة بالحديث عن شهر الصيام، لاسيما في موضوع الشكوى منه، يصيبه العجب من جرأة الشعراء الذين نظموها، ويتساءل: هل كان أولئك الشعراء في وعيهم في أثناء قولهم لها ؟! وذلك لما يجده فيها من العناد في ارتكاب المعاصي، بل الافتخار بها في أحيان كثيرة، ولا عجب من ذلك ؛ لأنّ الشيطان حين يغدو قريناً للإنسان السيء يجعله يفعل أكثر ممّا متوقّع منه.

إنّ شكوى بعض الشعراء العباسيين من الصيام في شهر رمضان تذكّرنا بالرواية التي تقول: " **نظر رجل حجازي إلى هلال شهر رمضان، فقال: قد جئتني بقرينك، قطع الله أجلي إنْ لم أقطعك بالأسفار**"[٤]، إذن، الشكوى من أذى الصيام في شهر رمضان، لاسيما إذا كان ميعاد قدومه في موسم الصيف واشتداد الحرارة، أمرٌ موجود في الأزمنة كلّها، إلّا أنّ الشعراء العباسيين تجاوزوا

الحدود كلها، وصرّحوا بما لا يجوز التصريح به إطلاقاً؛ لأنّ تأثير الشعر في الآخرين قوي جدًّا، فما بالك إذا وافق نفوساً ضعيفة تتخذ من أقوال الشعراء حججاً لها ؟ فيحذون حذو أولئك الشعراء الفاسقين.

ومن أمثلة الشكوى من أذى الحرّ والصوم في شهر رمضان، النص الذي نظمه أبو دلامة الأسدي، وفيه يطلب من الخليفة المهدي إعفاءه من قيام ليلة القدر، لعدم مقدرته على ذلك، فضلاً عن تصويره لبؤسه في أثناء ادائه فريضة الصيام، فهو يرى الصيام عذاباً مؤصداً، فضلاً عن شكواه من كثرة الصلاة في هذا الشهر ؛ لأنّ السجود الكثير أدى إلى إيذاء جبهته ؛ بسبب حصا المسجد، قال:

أدعــوك بــالرَّحم التــي هــي جَمَّعَــتْ ... فــي القُــرْبِ بــين قَريبنــا والأبْعَــدِ

إلّا ســمعتَ وأنــتَ أكــرمُ مَــن مَشــى ... مِــنُ مُنشِــدٍ يرجــو جــزاءَ المُنْشَــدِ

جــاء الصــيامُ فصُــمْتُه مُتعبِّــداً ... أرجــو رجــاءَ الصــائم المتعَبِّــدِ

ولَقيــتُ مــن أمــرِ الصّــيامِ وحَــرِّهِ ... أمــرين قِيســا بالعــذابِ المؤصَــدِ

وســجدتُ حتّــى جبهتــي مشــجوجةٌ ... ممّــا يُنــاطحني الحصــا فــي المســجدِ

فــامنُنْ بتســريحي بمطْلِــكَ بالــذي ... أسْــلَفْتَنِيه مــن الــبَلَاءِ المُرْصَــدِ(٥)

كما أنّ الشاعر يتمنّى لو كان بينه وبين الصيام من غلظ الأرض وحزونها ما يحول دونه ؛ لأنّ الصوم يجعله قلقاً من ألم الجوع والعطش، ويشكو وجع البطن، فضلاً عن صعوبة خروجه ليلاً، لأداء الصلاة في المسجد ؛ بسبب الضرر الذي لحق بعينيه نتيجة لكبر سنّه، إذ قال:

أضْــحى الصّــيامُ مُنِيخــاً وســط عَرَصَــتنا ... ليــتَ الصِّــيامَ بــأرضٍ دُونَهــا حَــرَشُ

إنْ صُــمْتُ أوجعنــي بطنــي وأقْلَقَنــي ... بــين الجــوانحِ مــسُّ الجُــوعِ والعَطَــشُ

وإنْ خرجــتُ بليــلٍ نحــو مســجدهم ... أضَــرَّني بَصَــرٌ قــد خانَــهُ العَمَــشُ(٦)

إن هذه الأبيات، والأبيات التي سبقتها – حتّى إنْ كانت بدافع الدعابة أو التسلية– تصوّر الواقع المرير الذي كانت تشهده الساحة العباسية من ضعف الوازع الديني وضعف الايمان لدى كثير من الناس، سواء أكانوا في الطبقات الحاكمة ومَن التفَّ حولهم، أم لدى الطبقات البسيطة من الناس؛ لأن الأبيات – كما رأينا – تُعَدُّ تجاوزاً يتعدّى مالا يُسْمَح بتعدّيه، فالأمور الدينية المفروضة

علينا لا يمكن السخرية منها تحت أية ذريعة أو أيّ مسوّغ، ومَن يفعل ذلك سيلقى ما وعده الله تعالى من العذاب في الدنيا والآخرة.

ولمّا اشتدّ الحرّ والعطش في شهر رمضان، سارع محمد بن كناسة الأسدي إلى الشكوى من الوقت الذي يشعر فيه الصائم بالعطش الشديد، أَلَا وهو الوقت الواقع ما بين العصر ووقت الإفطار، واصفاً العطش بصورة القاتل الذي يؤدّي مهمة ذبح الصائم في هذا الوقت تحديداً، قائلاً:

بين العِشاءِ وبين العصر منزلةٌ يكاد يَذْبَحُ فيها الصائمَ العطشُ(٧)

لاشكَّ في أنّ رسم العطش بهيأة الانسان القاتل ؛ الذي يمارس فعلاً شنيعاً بقتله الانسان الصائم، متأتٍ من الحال الإنسانية التي أحسَّ بها الشاعر؛ بسبب عطشه الشديد في هذا الوقت، فتلك الحال هي التي اضطرته إلى تصوير العطش بتلك اللوحة القاسية، التي تتضمن معنى الشكوى بوضوح تام.

أمّا عُليّة بنت المهدي، فإنها كانت من النساء اللائي يمتلئن ضجيجاً وصخباً، فضلاً عن كونها مُجيدة للغناء، وهذا يعني أنها كانت تصرّ على ارتكاب المعاصي، وكلّ ما من شأنه أنْ يغضب الله (سبحانه وتعالى)، لذا فان شهر رمضان يعني لها أمراً غير مرغوب فيه ؛ لكونه يقضي على اللهو بصوره جميعها، الأمر الذي دعا الشاعرة إلى بثِّ شكواها من طول ليالي شهر رمضان، إذ توهّمتها زادت على عددها المألوف، وذلك حين غنّت الخليفة هارون الرشيد، في يوم الفطر، قائلة:

طالتْ عَلَيَّ ليالي الصّوم واتّصلتْ حتّى لقد خلتُها زادتْ على العَدَدِ

شوقاً إلى مجلسٍ يزهو بساكِنِهِ أُعيذُهُ بجلالِ الواحِدِ الصَّمَدِ(٨)

وتأتي شكوى الشاعر ابن المعتز بسبب قدوم شهر رمضان، منطلقة من حرمانه من شرب الخمرة فيه، إذ جاء الشهر في أيلول، ولم يأخذ ابن المعتز كفايته بعد من الخمرة، ممّا أدّى به إلى إعلان موقفه من الدهر، فهو لا يرضى عنه إلّا حين يقوم بسرقة شهر الصيام في كلّ عام، وتحمل تلك الرغبة دلالة حقده وكرهه لهذا الشهر العظيم، يقول متمنياً اختفاء الشهر:

طَفَّلَ في أيلولَ شهرُ الصيامْ وما قضينا فيه حقَّ المُدامْ

واللهِ لا أرضى عن الدَّهْرِ أو يَسرِقُ شهرَ الصومِ في كلّ عامْ(٩)

إنّ تمنّي ابن المعتز الخلاص من شهر الصيام في كلّ عام ؛ يعكس الحال المريضة لديه ولدى كثير من الشعراء في ذلك العصر، فياتُرى إلى أيّة درجة من الانحدار الأخلاقي وصل إليه

هذا الشاعر وأمثاله ؟! والى أيّ مدى تحالفوا مع الشيطان ليتجرّؤوا على الإعلان عن اشمئزازهم من هذا الشهر المبارك؟!

إنّها حياة اللهو والمجون التي أُولعوا بها، فكانت سبباً لوصولهم إلى هذه المرتبة من اللامبالاة بالشرائع السماوية، وبتطبيق أحكام الدين الإلهي السامية.

ويستثمر الشاعر ابن لنكك البصري فرصة الحديث عن الأشهر الحارة، وهي حزيران وتموز وآب، وشكواه من شدّة حرّها، ليتحدث عن اقتران تلك الأشهر بشهر رمضان، الأمر الذي يزيد من عذابه، ويضطره إلى تشبيه حاله وحال الآخرين بالسبائك المذابة في بواتقها، في كناية واضحة عن العذاب الذي يعانونه في حال قدوم شهر رمضان بالتزامن مع مجيء واحد من هذه الأشهر، فيقول:

حزيـــــــــران وتمـــــــــوز وآب ثلاثـــــةُ أشـــــهرٍ فيهـــا العـــذاب

فـــان قُرِنَـــتْ بشـــهر الصّـــومِ صـــرنا ســـبائك فـــي بواتقهـــا تُـــذاب[١٠]

وتقترن الشكوى من ليلة القدر لدى أبي دلامة الأسدي بالشكوى من شهر رمضان، ونحن نعجب من شاعر يشكو هذه الليلة التي أنزل الله (سبحانه وتعالى) فيها قوله: **﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾**[١١]، فهي ليلة مباركة عند الله (عزّ وجلّ)، إذ أنزل فيها القرآن الكريم، فضلاً عن أنّ قيامها يعادل فضل ألف شهر من العبادة، وفيها تتنزل الملائكة على عباد الله المؤمنين.

إلّا أنّ الشاعر يسوّغ لشكواه من هذه اللّيلة بكبر سنّه، وضعف جسمه، فهو لم يعد قادراً على قيامها مرغماً من لدن الخليفة المهدي، لذا يوجّه خطابه إلى زوج المهدي، يشكو فيه إلزامه القيام في المسجد، في محاولة منه لإعفائه من الإقامة فيه، وقد فصّل في نصّه الشعري أنّ نفسه قد احتضرت، ودنت منيّتها، فهو لا يتحمّل إقامة ليلة القدر، بسبب طول عمره، فهو يتوقع مجيء الموت قبل عشرين عاماً مضت، ويصف الليلة بأنها سببُ كَسْرِ رِجْلَيه، الأمر الذي أدّى به إلى الدعاء بعدم المباركة في خير يأتيه من ليلة القدر، بعد أنْ قام ثلاثين ليلة، قائلاً:

خـــافي إلهـــكِ فـــي نَفْـــسٍ قـــد احْتَضَـــرَتْ قامـــتْ قيامتُهـــا بـــين المُصَـــلِّينا

مـــا ليلـــةُ القَـــدرِ مـــن هَمِّـــي فأطلُبهـــا إنِّـــي أخـــافُ المنايـــا قبـــلَ عِشـــرينا

يالَيلـــةَ القَـــدرِ قـــد كَسَّـــرْتِ أرجُلَنـــا يالَيلـــةَ القـــدرِ حَقًّـــا مـــا تُمنِّينـــا

لا بـــارَكَ اللهُ فـــي خيـــرٍ أُؤمّلُـــهُ فـــي ليلـــةٍ بعـــدما قُمْنـــا ثلاثينـــا[١٢]

وبعد فشل محاولة الشاعر الأولى، يعمد إلى تكرار المحاولة مع المخاطبة نفسها، أقصد: زوج المهدي، لتشفع له عند زوجها، فيعفيه من القيام، فهو في خطابه هذا يوضّح موقفه من شهر الصيام، فهو لا يشتهي قدومه، فضلاً عن عدم رغبته بمجيء ليلة القدر، فهو رجل يحبّ احتساء الخمرة، ولا يبالي بليلة القدر، ولا يرغب في السماع عنها، لذلك يطلب الفرج من زوج المهدي، داعياً بالأجر لها فيما لو خلصته منها، إذ يقول:

أبلغـــــا ريطـــــة أنّـــــي كنـــــتُ عبـــــداً لأبيهـــــا
فمضـــــى يرحمـــــه اللـــــ ـــــهُ وأوصـــــى بـــــي إليهـــــا
وأراهـــــا نســـــيتني مثـــــل نســـــيان أخيهـــــا
جـــاء شـــهر الصـــوم يمشـــي مشـــية مـــا أشـــتهيها
قائـــداً لـــي ليلـــة القـــد ر كـــأنّي أبتغيهـــا
تـــنطحُ القبلـــةَ شـــهراً جبهتـــي لا تأتليهـــا
ولقـــد عشـــتُ زمانـــاً فـــي فيـــافي وجيهـــا
فـــي ليـــال مـــن شـــتاء كنـــتُ شـــيخاً أصـــطليها
قاعـــداً أُوقـــد نـــاراً لضـــباب أشـــتويها
وصـــبوحٍ وغبـــوقٍ فـــي عـــلاب أحتســـيها
مـــا أُبـــالي ليلـــة القـــد رِ ولا تســـمعنيها
فـــاطلبي لـــي فرجـــاً منـــ ـــها وأجـــري لـــك فيهـــا[١٣]

ولم يكتف بعض الشعراء العباسيين بطرح شكاواهم من شهر الصيام ؛ لما فيه من الحرّ والعطش والجوع وحرمان من ممارسة الملذّات المحرمة، بل راحوا يتوعّدونه بالانتقام منه بمجرّد انتهاء أيامه ولياليه، فما أنْ يقترب موعد ظهور هلال شوّال، حتّى يبدأون بالاستعداد لأخذ الثأر من شهر رمضان، وذلك من طريق التحضير لما كانوا محرومين منه، فبشار بن برد يتحدث إلى شهر رمضان مباشرة ويخبره بأن يجتهد بما استطاع بهم من الأذى ونحول الجسم، ويخبره بأنك سترى ما سنفعله في شوّال، وهو لا يقصد من ذلك إلّا الوعيد بتنفيذ ممارسته المحرمة من زنا، وارتياد لمجالس اللهو والخمرة، قال:

قــل لشــهر الصــيامِ أنحلــتَ جســمي إنّ ميقاتَنـــا طلـــوعُ الهـــلالِ

اجْهَـــدْ الآنَ كُـــلَّ جَهْـــدِكَ فينـــا سَـــترى مـــا يكـــون فـــي شـــوّالِ[١٤]

وإذا كان بشار بن برد لم يتحدّث صراحة عمّا سيفعله بعد انتهاء شهر رمضان، وإنْ كان مقصوده واضحاً، فانّ أبا علي البصير تحدّث إلى صاحبيه بكل جرأة وصراحة بما سيفعله بعد رؤيته هلال شوّال، فقد نوى الذهاب إلى الملاهي في أول أيام عيد الفطر ؛ لاحتساء الخمرة، فضلاً عن صياحه بصوت عالٍ في ظَهْرِ شهر رمضان، وكأنه يريد القول: إنّه سعيد بانتهاء شهر الصيام، فذلك واضح من طريق قوله:

أقـــول لِصـــاحِبَيَّ وقـــد رأينـــا هـــلالَ الفِطْـــرِ مِـــن خَلَـــلِ الغَمـــامِ

غـــداً نغـــدو إلـــى مـــا قـــد ظَمِئْنـــا إليـــه مـــن الملاهـــي والمُـــدامِ

ونَســـكَرُ سَـــكْرَةً شَـــنعاءَ جَهْـــراً ونَنْعَـــرُ فـــي قَفـــا شَـــهْرِ الصِّـــيامِ[١٥]

ويدعو ابن المعتز جهرة إلى تقديم الترحيب لكلٍّ من آذاهم شهر الصيام – على حدِّ تعبيره – فقد وصفهم بالموت من كثرة تأديتهم للصلاة والصوم، فكلمة (ماتوا) توحي لنا بشكوى تمتلك صوتاً عالياً، وهي لا تدلّ إلّا على قلّة أدب الشاعر، وعدم حيائه من الله تعالى، والمهم أنّ نصّه يوحي بدعوتهم جميعاً إلى ممارسة ملذّاتهم التي حُرِمُوا منها خلال شهر رمضان، ممّا يدلّ على أنّه يدعوهم إلى تعويض ما فاتهم في ذلك الشهر، إذ قال:

قُـــــمْ حَـــــيِّ قومـــــاً مـــــاتوا صـــــلاةً وصَـــــوما

لـــــم يطعَمـــــوا لَـــــذَّةَ العَيـــــشِ مُـــــذْ ثلاثـــــونَ يومـــــا[١٦]

وبعد أنْ يشكو الصُّوري شهر رمضان، لكونه أبعد عنه وعن غيره لذّة شرب الخمرة، نراه يصوّر تلك الخمرة بأنّها تستجير بشهر شوّال، فلبّى لها الشهر استجارتها، فأجارها مسرعاً، بحيث كاد أن يعثر بسبب إسراعه، وهذه الصورة لا تدلّ إلّا على رغبة الشاعر في انقضاء شهر الصيام بسرعة كبيرة ؛ لكي يعود إلى معاقرة الخمرة، فذلك واضح في قوله:

وقَهـــوةٍ قـــام شـــهرُ الصَّـــومِ يَطْرُدهـــا عـــن مِلَّـــةٍ فانْضَـــوَتْ منهـــا إلـــى مِلَـــلِ

حتّـــى اســـتجارَتْ بشـــوَّالٍ فأنجـــدَها وكـــادَ يعثـــرُ شـــوَّالُ مـــن العَجَـــلِ[١٧]

وممّا يُثير العجب لدى أيّ متلقٍ لهذه النصوص الشعرية ؛ هو أنّ كثيراً من الشعراء العباسيين يفرحون بانقضاء شهر رمضان ؛ ليعودوا إلى ما كانوا عليه قبل مجيئه، من ممارسة

للمجون ومعاقرة للخمرة، إذ وجدنا بعضهم مستبشراً برؤية هلال شهر شوّال، أو باقتراب ظهوره ؛ لممارسة رذائله، أو ينصح الآخرين بممارستها؛ لكون شهر رمضان قد انقضى أو ستنقضي أيامه قريباً، فهذا علي بن جبلة قد دخل على الخليفة المهدي في ثاني يوم من أيام عيد الفطر، فأنشده قصيدة أعلن في مطلعها عن رغبته في شرب الخمرة، وسماعه الأغاني والموسيقى، والأعجب من ذلك أنّه يقول هذه الأبيات، ويصرّح بهذه الأمنيات المحرمة أمام الخليفة، الذي من المفروض انْ يكون ممثّلاً شرعيًّا للأمة الاسلامية، ومن واجبه مَنْع مثل تلك الممارسات اللاأخلاقية، ولكن هذا ما جرى، فقد كان كثير من الخلفاء العباسيين أسباباً رئيسة لانعدام القيم الأخلاقية، والابتعاد عن الممارسات الدينية الاسلامية، وهذه الأبيات تؤكد صدق ما نقوله:

علّلانـــي بصـــفوِ مـــا فـــي الـــدنان ... واتركـــا مـــا يقـــول العـــاذلان

واســـبقا فـــاجع المنيـــة بالعيـــ ... ـــشِ، فكـلُّ مَـن علـى الجديـدين فـان

علّلانـــي بشـــربة تُـــذْهِبُ الهمْـــ ... مَ وتَنفـــي طـــوارق الأحـــزان

والقيـــا فـــي مســـامعٍ ســـدَّها الصَّـــو ... مُ رقـــى الموصـــليّ أو دحمـــان

قـــد أتانـــا شـــوّال فاقتبـــل العيـــ ... ش واعـــدي قســـراً علـــى رمضـــان

نِعـم عـون الفتـى علـى نُـوَب الدَّهـ ... ـرِ سَـماع القيـان والعيـدان[١٨]

ولم تكن المسؤولية تقع على عاتق الخلفاء العباسيين فقط في الانحلال الاخلاقي الذي مرّت به الأمّة العربية والإسلامية في ذلك الوقت، بل شاركهم فيها الممدوحون الذين كانوا يطربون فرحاً بمدائح الشعراء، وكانوا يجزلون لهم العطاء حتى إنْ كان على حساب التجاوز على قيم الدين الاسلامي وأوامره ونواهيه، فالشاعر السابق نفسه دخل يوماً على ممدوحه أبي دلف، واستسقاه نبيذاً في يوم عيد الفطر، فبذل له الممدوح ما يكفيه، وليس ذلك فحسب، بل اعطاه مئتي دينار أيضاً، فذكر الشاعر تلك المناسبة في أربعة أبيات من الشعر، صوّر فيها عطاء ممدوحه، وتحدّث عن شربه الخمرة وأخذه لثأرها من رمضان الذي حرمه منها، مشيراً إلى تعويضه نفسه في شهر شوّال ممّا حُرِمَ منه في شهر رمضان، قائلاً:

وأبـــيضَ عجلـــيٍّ رأيـــتُ غمامـــه ... وأســـيافه تقضـــى علـــى الحـــدثانِ

مـــددتُ إليـــه ذمّتـــي فأجارهـــا ... وأغنـــى يـــدي عـــن غيـــره ولســـاني

شَـــرِبْتُ وروَّيـــتُ النّـــديم بمالـــه ... وأدركـــتُ ثـــأر الـــرّاحِ مـــن رمضـــانِ

وكـــان لشـــوّال علـــيّ ضـــمانةٌ فكانـــت عطايـــا جُـــوده بِضَـــمانِ[١٩]

ويُعرب ابن المعتز عن فرحته بانقضاء شهر رمضان من طريق مطلع أبياته، إذ يرحّب بالناي والعود والكأس الذي يحمله ساقٍ يشبه الغصن المقدود، وهذا إنْ دلّ على شيء فإنّما يدلّ على نيّته في سماع الأغاني وشرب الخمرة مباشرة بعد انقضاء شهر الصيام، ليعوّض ما فاته من السكر والملذّات المحرمة الأُخَر، وبالفعل فقد اعترف بذلك في أبياته حين أعلن فيها عن انقضاء شهر رمضان، وصوّر هلال العيد بالمرض، لكونه يبدو ناحل الشكل في أول ظهوره، وهو يبشّر بالعيد، وقد بدا الشاعر مستبشراً بذلك في قوله:

أهـــلاً وســـهلاً بالنـــاي والعُـــودِ وكـــأسِ ســـاقٍ كالغصـــنِ مقـــدودِ

قـــد انقضَـــتْ دولـــةُ الصِّـــيامِ وقـــد بَشَّـــرَ سُـــقْمُ الهِـــلالِ بالعيـــدِ

يَتلـــو الثُّريـــا كفـــاغِرٍ شَـــرِهٍ يَفـــتَحُ فـــاهُ لأكـــلِ عُنقـــودِ[٢٠]

وعلى النحو هذا يستثمر ابن المعتز أيّة فرصة ليعرب فيها عن فرحته بانقضاء شهر الصيام، وقدوم شهر شوّال ؛ ليهنأ بملّذاته المرفوضة، فهو – في مناسبة أخرى – أعلن عن تهنئته لأصحابه بمجيء الفطر، ايذاناً بحثّ الكؤوس وشرب الخمرة والذهاب إلى الحانات، والابتهاج بكل ما لذّ وطاب من المحرّمات، قائلاً:

هنيئـــــاً لكُـــــمُ الفِطـــــرُ وحَـــــثُّ الكـــــأسِ والسُّـــــكْرُ

وظِـــــلُّ الكَـــــرْمِ والحانـــــا تُ والأشـــــجارُ والزَّهْـــــرُ[٢١]

والظاهر أنّ ابن المعتز كان كثيراً ما يتخذ من هذا الاسلوب الشعري مفتتحاً لأبياته، أعني: اسلوب الترحيب، فهو – في بيت آخر – يرحّب أيضاً بظهور هلال الفطر، ثم ينصح نفسه والآخرين بالإقبال مبكرين على شرب الخمرة، فهو لا يستطيع الانتظار مدّة أطول من ذلك، فبمجرد رؤيته هلال الفطر، يباشر بارتكاب المعصية، فكلمة (الآن) في بيته الآتي تتضمّن دلالة التعجّل في تنفيذ ذلك الأمر:

أهـــلاً بفِطـــرٍ قـــد أنـــارَ هلالُـــهُ فـــالآنَ فاغـــدُ علـــى المُـــدامِ وبَكِّـــرِ[٢٢]

وينصح ابن بسّام بالاستعداد للّهو بمجرد اقتراب مجيء شهر شوّال، وهذا لا يدلّ إلّا على مدى ضجر الشاعر من وجود شهر رمضان، الأمر الذي جعله ناصحاً بالاستعداد للتعويض في شهر شوّال، إذ قال:

قـد قَـرَّبَ اللهُ يـاذا كُـلَّ مَـنْ شَسَـعا كـأنّني بهـلال الفِطْـرِ قـد طَلَعـا

فَخُـذْ لِلَهْـوِكَ فـي شـوَّالَ أُهْبَتَـهُ فـانَّ شَـهْرَكَ فـي الـوَاواتِ قـد وَقَعـا[٢٣]

ولا تبتعد رؤية الشاعر كشاجم عن غيره من الشعراء الذين سبقوه، فهو يعلن عن تأديته حقوق الله (سبحانه وتعالى) في شهر رمضان، من الصيام وقراءة القرآن، فلمّا جاء عيد الفطر، رأيناه ناصحاً نفسه والآخرين باللّهو فيه، وعدم السماع للائمين؛ لأنه يمتلك رؤية خاصة به، ألَا وهي أداء الواجبات والحقوق المفروضة عليه، وفي الوقت نفسه أخذ فرصته من المتعة واللّهو في الحياة، بحيث تتوازن حياته بين الأمرين، ومن هذا المنطلق جاءت نصيحته الشعرية التي يقول فيها:

مَضَـى رمضـانُ قـد أدّيـتُ فيـهِ حُقُـوقَ اللهِ قُرآنـاً وصَـوما

وجـاءَ الفِطـرُ فالْـهُ الآنَ فيـه ولا تَسـمَعْ لمِـنْ يَلحـاكَ لَومـا

وعَـدِّلْ قِسْـمَةَ الأيّـامِ قَصْـفاً وعَـدْلُ رِياسـةٍ يَومـاً ويَومـا

ولَيلُـكَ شَـطْرُ عُمْـرِكَ فاغتنِمْـهُ ولا تَـذْهَبْ بِنِصـفِ العُمْـرِ نَومـا[٢٤]

ويستثمر الشاعر أبو بكر محمد بن هاشم الخالدي فرصة مدحه للوزير المهلبي، ليُطلق ما في داخله من رغبات كبَتَها شهر رمضان، فنراه ينصح بشرب الخمرة، بل والإكثار من الشرب، بدلالة قوله: (فَوَاصِل)، وما ذاك إلّا رغبة منه في التعويض عمّا حُرِمَ منه في الشهر الفضيل، قال:

تَـوَلَّاكَ فيـهِ إلـهُ السَّـماءِ بِعِـزٍّ تعـالى ويُمْـنٍ تَـوَالَى

ولُقِّيْـتَ سَـعْداً إذا العيـدُ عـادَ ولُقِّيْـتَ رُشْـداً إذا الحَـولُ حـالا

وإنْ رَمَضـانُ أطـاحَ الكـؤوسَ فَشَـوَّال يـأذَنُ فـي أنْ تُشَـالا

فَوَاصِـلْ بِـيُمْنٍ كُـؤوسَ الشَّـمُولِ يمينـاً مُقَبَّلَـةً أو شِـمالا[٢٥]

وعلى الرغم من سوء نيّة الطغرائي في بيتيه اللذين دعا فيهما الآخرين إلى ممارسة اللّذّات في عيد الفطر من شرب الخمرة وسماع الموسيقى والأغاني، إلّا أنّه رسم صورة مميزة في وصفه لمجيء هلال الفطر وانقضاء شهر رمضان، إذ عمد إلى تصوير الهلال بهيأة رجل يحمل بيده منجلاً ليحصد شهر رمضان، فكأنّ الهلال بذبح الشهر، في دلالة على ملله من شهر الصيام، وتعبه بسببه، لكونه حرمه من تلك الشهوات المحرمة، فقال:

قومـوا إلـى لـذاتكِمْ يانيـامْ ونبِّهـوا العـودَ وصـفُّوا المُـدامْ

هـــذا هـــلالُ الفِطـــرِ قـــد جاءَنـــا بمنجـــلٍ يحصـــدُ شـــهرَ الصِّـــيامْ[٢٦]

وإذا كان الطغرائي قد جعل شهر رمضان يُذْبَح على يد هلال الفطر، فانّ القاضي الفاضل عمد إلى موت الشهر، في كناية تدلّ على اقتراب انتهاء أيّامه فرؤية الشاعر لهلال رمضان وهو يكبر شيئاً فشيئاً، جعله فَرِحاً لتزايد عدد أيّامه المنصرمة، وتناقص عدد الأيام المتبقية، وهذا ما دفعه إلى وصف شهر رمضان بأنّه بدأ يمشي مسرعاً ولم يَعُد بطيئاً كأول أيّامه، وهذا ما شجّعه على التصريح بجرأة كبيرة بأنّه سيريح المَلَكَ الجالس على يمينه، في كناية عن عدم فعله للحسنات بعد شهر رمضان، لكون المَلَك الجالس على يمينه مختصًّا بتسجيل الحسنات، أمّا المَلَك الذي يجلس على شماله، فقد أعلن الشاعر عن أنه سيتعبه ؛ لكثرة السيئات التي سيرتكبها بعد انقضاء شهر الصوم، قائلاً:

قَضَـــى نَحْبَـــهُ الصَّـــومُ بعـــدَ المِطـــالِ وأُطلِـــقَ مـــن قَيـــدِ فَتْـــرِ الهِـــلالِ

وَرَوَّحْـــتُ كاتِـــبَ جَنْبِـــي اليَمِـــينِ وأَتْعَبْـــتُ كاتِـــبَ جَنْبِـــي الشِّـــمالِ[٢٧]

إذن، كان الشعراء في النصوص السابقة راغبين في تعويض ما حُرِمُوا منه في شهر رمضان، لذا نراهم يدعون إلى الشرب بكثرة بمجرد انتهاء أيام الصيام وبزوغ هلال شهر شوّال، فضلاً عن دعوتهم أنفسهم والآخرين إلى ارتكاب الذنوب من طريق إقامة الملّذات المختلفة ؛ التي نهانا الإسلام عن ممارستها.

وإذا كان أبو الهندي يعترف بشربه الخمرة في شهر رمضان من طريق قوله:

شـــربتُ الخمـــرَ فـــي رمضـــانَ حتّـــى رأيـــتُ البـــدر للشِّـــعرى شـــريكا

فقـــال أخـــي: الـــدُّيوكُ مناديـــاتٌ فقلـــتُ لـــه: ومـــا يُـــدري الـــدُّيوكا؟ [٢٨]

فانّ بعض الشعراء العباسيين كانوا يدعون إلى الإكثار من شرب الخمرة قبل مجيء شهر الصيام، وأَخْذِ كفايتهم قبل حرمانهم منها، وكان البحتري مكثراً من تلك الدعوة، حتى إنّه ينظر نظرة سلبية حين يصف شهر الصيام بازدراء بأنه سيمنعهم شربها، فذلك واضح من طبيعة نظم الألفاظ في بيته الذي يقول فيه:

فَتَـــرَوَّ مـــن شَـــعبانَ ! إنّ وَرَاءَهُ شَـــهْراً يُمانِعُنـــا الرَّحيـــقَ السَّلْسَـــلا[٢٩]

وتتكرّر دعوته في مدحه للخليفة المعتز بالله، فهو ينبّه نديمه للإسراع في الإكثار من شرب الخمرة في ليلة شهر رمضان، بمعنى أنّه يريد استقبال شهر الصيام وهو ثمل، بدلالة مصارعة اللّيل والصباح في آخر ليلة من شعبان في بَيتَيه اللذين يقول فيهما:

ونـــــديمٍ نَبَّهْتُـــــهُ ودُجَـــــى اللَّيـــــ ـــــلِ وضَـــوءُ الصـــباح يَعْتَلِجـــانِ

قُـــمْ نُبـــادِر بهـــا الصِّـــيامَ فقـــد أقْـــ ـــمَرَ ذاك الهـــلالُ مـــن شَـــعْبانِ[٣٠]

ولم يبتعد ابن المعتز عن البحتري في طبيعة الطلب بالإكثار من شرب الخمرة قبل إقبال شهر الصيام الذي يمنع شاربيها منها، إلّا في وصف الخمرة الذي لا يدلّ إلّا على شدّة ولعه بها، وحبّه لها، فذلك واضح من طريق قوله فيها:

قـــد أتانـــا شـــهرُ الصِّـــيامِ فحثُّـــو هـــا شَـــمولاً راحـــاً بمـــاءٍ زلالِ

بِنـــتَ كـــرْمٍ أتـــى عليهـــا مـــن الأحـــوا لِ فـــي الـــدَّنِّ عَقـــدُ عشـــرِ الشِّـــمالِ

مـــا رأتْ منـــذُ خالفـــتْ خِـــدْرَها شـــيئاً ســـوى خاطـــبٍ مـــن النُّـــزّالِ

لا أرى لِلسّـــرورِ فيهـــا نصـــيباً فـــي ليـــالي الصّـــيامِ دُونَ الهـــلالِ

لا يَرانـــي الإلَـــهُ أعمُـــرُ دُنيـــا يَ وأســـعى لِهـــدمِها فـــي اللّيـــالي[٣١]

إنّ أشدّ ما يؤلم الباحث في هذا الموضوع، هو النصوص التي حصل عليها وكانت تتضمّن هجاء شهر رمضان صراحة، إذ اهتمّ بعض الشعراء بهجاء الشهر الفضيل من دون رادع أو عقاب، ولكن قبل سِبر أغوار تلك النصوص الهجائية، أودّ الإشارة إلى أنّني وجدتُ نصًّا شعريًّا يتيماً من ثلاثة أبيات للصاحب بن عباد، يمدح فيه شهر رمضان، ويردّ فيه على كلّ مَن تحدث بأمر سلبي عنه، واتّهمهم بالكذب، معدّداً بعض فضائل الشهر، مثل الفائدة التي يحصل عليها الإنسان من طريق الصّيام، فضلاً عن عدم الشّكّ من أيّة مواقف مريبة في أثناء النهار، أمّا في الليل، فيكون الاجتماع في المساجد ؛ من أجل الصلاة وقيام الليل، إذ قال:

قـــد تعـــدّوا علـــى الصـــيام وقـــالوا حُـــرِمَ الصَّـــبُّ فيـــه حُسْـــنَ العوايـــدْ

كـــذبوا فالصّـــيامُ للمـــرءِ مهمـــا كـــان مســـتيقظاً أتـــمُّ الفوايـــدْ

موقـــفٌ بالنهـــارِ غيـــر مُريـــبٍ واجتمـــاعٌ باللّيـــلِ عنـــد المســـاجدْ[٣٢]

أما بخصوص هجاء شهر رمضان، فقد عثرنا على مجموعة من النصوص التي نالت منه من دون أيّ خجل من لدن ناظميها، فضلاً عن عدم الخوف من الله تعالى، وكان البحتري – في أحد نصوصه– ساخراً من شهر الصيام، واصفاً أيامه القليلة التي تفصله عن شهر شوّال بالطول

المبالغ فيه؛ إذ شبهها بـ(شاه بن ميكال) المعروف بطوله، في إشارة إلى عدم تحمّله للأيام التي تبقّت منه، فضلاً عن قلّة الأدب في هذا التشبيه، قال:

لمّـا حَصَـلْنا علـى العَشْـرِ التـي بَقِيَـتْ وأدْبَـرَ الشَّـهْرُ عنّـا بعـدَ إقبـالِ

وآنْسَـتْ لَهَـواتِي بَعـد مـا لَفَظَـتْ طَعْـمَ الصِّـيامِ حـديثاً طعْـمَ شَـوَّالِ

أُرِيـتُ ذا رَبْعَـةٍ فـي العَـينِ مـن قِصَـرٍ وذاك أطـولُ مـن (شـاهِ بـن مِيكـالِ)[٣٣]

وبالنسبة للشاعر ابن الرومي، فانّه نال دور البطولة في هجاء شهر رمضان؛ فهو من أكثر الشعراء العباسيين الذين نظموا شعراً في هجاء الشهر المبارك، ففي أحد نصوصه أساء كثيراً لشهر الصيام، مدّعياً أنّ المباركة للناس في الصيام تعني الدعوة عليهم بطول العذاب، ويرى أنّه لا تبريك في شهر طويل كأنّ اليوم فيه يوم الحساب على حدّ قوله، ثمّ يتمنى أن يكون ليل شهر رمضان طويلاً جدًّا وكأنّه شهر بحاله، أمّا النهار فيه، فيتمنى أنْ يمرّ بسرعة كبيرة، مثل السحاب، وتدفعه جرأته – في نهاية نصّه – إلى عدم الترحيب بهذا الشهر المبارك، واصفاً إيّاه بمانع كل خير، في الوقت الذي يرحّب فيه بالطعام والشراب، ويبدو أنّ شرهه وحبّه للطعام هو ما دفعه إلى هذا القول:

إذا برَّكْـــتَ فـــي صـــومٍ لقـــومٍ دعـــوتَ لهـــم بتطويـــلِ العـــذابِ

ومـــا التبريـــكُ فـــي شـــهر طويـــلٍ يُطـــاولُ يومُـــه يـــوم الحســـابِ

فليـــتَ اللّيـــلَ فيـــه كـــان شـــهراً ومَـــرَّ نهـــارُهُ مـــرّ السّـــحابِ

فـــلا أهـــلاً بمـــانع كـــلّ خيـــرٍ وأهـــلاً بالطعـــامِ والشـــرابِ[٣٤]

كما لم يسلم هذا الشهر من الهجاء الساخر الذي عُرِفَ به ابن الرومي، وربما سيعجب المتلقي من جرأة الشاعر التي لا تترك له خطأً للرجعة، وحتى لو كانت أبياته الساخرة بدافع التسلية والمداعبة، فهذا لا يعني أنه لا يُسأل عن قلّة أدبه في التعامل مع هذا الشهر الذي يقدسه المسلمون ؛ لعظمته وفضائله المعروفة، فهو يصف الشهر بالطول والثقل أوّلاً، ثمّ يصف مشيه بالبطء، أمّا حين يقدم؛ فانه سريع جدًّا، بحيث لا ينافسه في السرعة أسرع شعراء العرب في الجري، أَلَا وهو السليك بن السلكة، فشهر رمضان لديه – بسبب سرعة قدومه – كطالب الثأر، يكون مستعجلاً في أخذ ثأره.

وفضلاً عن ذلك الوصف المزري للشهر، فانّ الشاعر لا يتردّد في بيان موقفه منه، فهو يعلن عن ذمّه له بسبب الجوع والعطش، ولا يحمده إلّا في اللّيل، بسبب الحرية التي ينالها في تناول

الطعام والشراب، ولكن بعد موعد السحر يذمّه، ويشبهه بأنّه إذا كان مولى، وكان الناس عبيداً له، لغدا مولى بخيلاً سيئاً في تعامله مع عبيده.

أمّا في البيت الأخير من قصيدته، فنرى ازدياد السخرية من الشهر الفضيل، إذ رأى فيه الشاعر أنّه لولا دفاع الله تعالى عن الناس ؛ لأسلمه الشهر والآخرين إلى الموت والهلاك بحسب ادّعائه:

شـــهرُ القيـــام وإنْ عظّمـــتُ حُرْمَتـــه ... شـــهرٌ طويـــلٌ ثقيـــلُ الظِّـــلِّ والحركَـــهْ

يمشـــي الهُوَينـــا، وأمّـــا حـــين يطْلُبنـــا ... فـــلا السُّـــلَيْك يدانيـــه ولا السُّـــلكهْ

كأنّـــهُ طالـــبٌ ثـــأراً علـــى فـــرسٍ ... أجَـدَّ فـي إثـر مطلـوب علـى رمَكَـهْ

أذُمُّـــهُ غيـــرَ وقـــتٍ فيـــه أحمـــدُهُ ... منـــذُ العِشـــاءِ إلـــى أنْ تســـمع الدّيكَـــهْ

وكيـــف أحمـــدُ أوقاتـــاً مُذمّمـــةً ... بـــين الـــدُّوب وبـــين الجـــوع مشـــتركّهْ؟

ياصـــدق مـــن قـــال: أيـــامٌ مباركـــة ... إنْ كـان يكنـى عـن اسـم الطـول بالبركَـهْ

لـــو كـــان عمـــري طريقـــاً مـــا لقيـــتُ بـــه ... إلّا الصـــــيامَ وإلّا شـــــهرَهُ نَبكَـــــهْ

شـــهرٌ كـــأنّ وقـــوعي فيـــه مـــن قلقـــي ... وسُـوءِ حـالي وقـوعُ الحـوتِ فـي الشّـبكَهْ

لـــو كـــان مـــولًى وكنّـــا كالعَبيـــد لـــه ... لكـــان مـــولًى بخـــيلاً سَـــيِّء الملكَـــهْ

قـــد كـــاد لـــولا دفـــاعُ اللهِ يُســـلِمُنا ... إلـــى الـــرّدى ويُؤَدينـــا إلـــى الهلَكَـــهْ[٣٥]

وتبقى صفة الطول ملازمة لشهر رمضان في هجاء الشاعر ابن الرومي، في دلالة أكيدة على تضجّر الشاعر من تلك الصفة، وكما ذكرت سابقاً، ربما يكون السبب هو شره الشاعر وحبّه للطعام، فشهر رمضان لديه طويل جدًّا، بحيث أنّه يرى الشبر فيه للقاطع مسافة كأنه ميل، مبالغة منه في وصف ذلك الطول:

رمضـــانُ يزعمـــه الغـــواةُ مبـــاركٌ ... صـــدقوا وجـــدِّك إنّـــه لَطَويـــلُ

شـــهرٌ لعمـــرك لا يقـــلُّ قليلُـــه ... وكـــذا المبـــارك لـــيس منـــه قليـــلُ

تتطـــاول الأيـــامُ فيـــه بجهـــدِها ... فكـــأنّ عهـــدَ الأمـــسِ منـــه محيـــلُ

لـــو أنّـــه للقـــاطعين مســـافةً ... لحســـبتَ أنّ الشـــبرَ فيهـــا ميـــلُ[٣٦]

ويرى الشاعر نفسه أنّه إذا كانت هناك بركة في شهر رمضان، فانها حتماً ستكون في طوله، ولذلك نراه يعترف بأنّه يغدو سعيداً حين يرى هلال شهر رمضان في أثناء اكتماله، ثمّ بعد ذلك يكون مسروراً أكثر حين يرى الهلال من جديد، أي هلال شهر شوّال، الدال على الإفطار وانتهاء شهر الصيام، ونجده يسوّغ لقوله السابق بأنّ شهر رمضان يحرم الإنسان من الشراب والطعام، مع أنّهما حلال له، ومع ذلك نجد الشاعر يعلن عن عدم نيله ثواب الصيام فيه، إذ قال:

شـــهرُ الصِّـــيامِ مبـــارك لكنمـــا جُعلـــتْ لنـــا بركاتـــه فـــي طولِـــه
ســـافِرْ بفكـــركَ منـــه فـــي نـــأيِ المَـــدى ممـــــدودِه ممطولِـــــه موصـــــولِه
مَـــن كـــان يألفـــه فكيـــف خروجـــه عنـــي بجـــدعِ الأنـــفِ قبـــل دخولِـــه
إنّـــي ليعجبنـــي تمـــامُ هلالِـــهِ وأُســـَـرُّ بعـــد تمامِـــهِ بنحولِـــه
شـــهرٌ يصـــدُّ المـــرءَ عـــن مشـــروبه ممّـــا يحـــلّ لـــه ومـــن مأكولِـــه
لا أســـتثيبُ علـــى قبـــول صـــيامِه حســـبي تَصـــرُّمه ثـــوابَ قبولِـــه[٣٧]

وإذا كان ابن الرومي مولعاً بوصف شهر رمضان بالطول، فكثيراً ما بنى هجاءه له على هذه الصفة، فان ابن المعتز عدَّ رؤيته لهلال الشهر نحساً على شربه الخمرة وسماعه الأغاني والموسيقى، فالشباب الذين كانوا فرحين بممارسة رذائلهم، عادوا مهمومين حين رأوا ذلك الهلال، وذهب نشاطهم ؛ لكونهم شعروا بالحزن، فهم لا يتمكنون من الشرب فيما بعد لحين انقضاء الشهر، ثمّ يصوّر الشاعر إعراض مَن يرتكب هذه الآثام عن الشهر كإعراض الفتاة عن الرجل صاحب الشيب، وذلك في قوله:

تبـــدّى عِشـــاءً هـــلالُ الصِّـــيامِ بِـــنَحسِ علـــى الكـــأسِ والبَـــرْبَطِ
فكـــم مـــن فتًـــى راحَ بـــينَ القِيـــا نِ نَشـــوانَ ذا فَـــرَحٍ مُفْـــرِطِ
وكـــان نشـــيطاً فلمّـــا رآ ه صـــاحَبَ هَمًّـــا فلـــم يَنْشَـــطِ
وأعـــرضَ عنـــه كمـــا أعرضَـــتْ فتـــاةٌ عـــن الحاجِـــبِ الأشْـــمَطِ[٣٨]

ولمّا رأى ابن رشيق القيرواني هلال شهر رمضان، سارع إلى بيان موقفه منه، وكان يحمل جانبين، الأول: الترحيب به علناً، والثاني: رفضه رفضاً مطلقاً، وإعلان هجائه له في قرارة نفسه، إذ تمنى الشاعر أنْ يكون سحابة ليخفي ظهور الهلال، إلّا أنّه رحَّب به ليُسمِعَ أصحابه، في الوقت

الذي لم يرغب في مجيئه في عقله الباطن، وشعوره السّريّ، فيُظهِر له حبَّهُ علناً، ويضمر حقده عليه سرًّا، لأنّ شهر رمضان – لديه – عدوّ لكلّ من يشرب الخمرة، فهذا السبب الرئيس الذي دفع الشاعر إلى هجاء هذا الشهر المبارك، وذلك حين قال:

لاحَ لـــي حاجـــبُ الهـــلالِ عَشِـــيًّا فَتَمَنَّيْـــتُ أنَّنِـــي مِـــن سَـــحابِ

قلـــتُ أهـــلاً ولـــيس أهـــلاً لمـــا قُلْـــ ـــتُ ولكـــنْ أســـمَعْتُها أصـــحابي

مُظْهِـــراً حُبَّـــهُ وعنـــديَ بُغْـــضٌ لِعَـــدُوِّ الكُـــؤوسِ والأكـــوابِ[٣٩]

أمّا الشاعر ابن الساعاتي، فانه استثمر فرصة مجيء شهر رمضان في شهر آب، ليوجّه هجاءه لكليهما، مبتدئاً بهجاء شهر آب، بسبب شدّة حرارته، والسموم التي تأتي فيه، داعياً عليه بالقبح ؛ لأنه من رقّة النسيم، ومن الظلّ، فكل يوم فيه عذاب أليم على الإنسان، ثمّ يتحدث عن وجوب الصيام في هذا الشهر (آب)، مدّعياً أنّه صام فيه، ولكنه وصف صيامه بالجحيم، ذامًّا شهر الصيام بأن عهده لم يكن كريماً، إلّا أنّه حفظه لمقامه الكريم، بحسب قوله:

قَـــبَّحَ اللهُ آبَ مـــا آبَ شـــهراً وابـــتلاهُ بمـــا بـــه مـــن سَـــمومِ

كـــلّ يـــوم بـــه عـــذاب أليـــمٌ وهـــو يُنجـــي مـــن العـــذابِ الأليـــمِ

أيُّ شـــهرٍ أظـــلَّ لا وارفَ الظلْـــ ـــلِ علينـــا ولا رقيـــقَ النّســـيمِ

طـــال فهـــو الأســـى وذخـــرٌ فمـــا أشْـــ ـــبَـــهَ أعجـــازه بصـــدر الكظـــيمِ

وَجَـــبَ الصَّـــومُ فيـــه شَـــرعاً فصُـــمنا فـــي جحـــيمٍ رجـــاءَ قـــرب الجحـــيمِ

لـــم يكـــن عهـــدُهُ كريمـــاً ولكنْـــ ـــنَـــا حفظنـــاهُ للمقـــامِ الكـــريمِ[٤٠]

إذن، كانت تلك مواطن ذكر شهر رمضان في الشعر العباسي، التي شكا فيها أكثر الشعراء صعوبة الصوم وشدّة الحرّ، وفراق مجالس الخمر، فضلاً عن عدم الاستماع إلى الأغاني، وعدم الحضور إلى مجالس اللهو، وما إلى ذلك من أمور تتنافى ووجود هذا الشهر المبارك، بحسب أوامر الدين الإسلامي ونواهيه، إلّا أنّ أكثر شيء مؤلم لحظه الباحث هو هجاء الشهر من لدن بعض الشعراء، لاسيما ابن الرومي، فقد أساؤوا له إساءة عظيمة، وحاولوا – خاسئين– النيل منه، أو التقليل من شأنه، في محاولة للتأثير في الآخرين، لكي يعدلوا عن تطبيق ركن مهم من أركان الاسلام والدين الحنيف.

المحور الثاني– توظيف الشهر في الأغراض الشعرية:

في هذا المحور لحظنا الإفادة من هذا الشهر من لدن كثير من الشعراء العباسيين، وذلك بالإفادة منه في بعض الأغراض الشعرية، وهي: المديح، والغزل، والهجاء، والرثاء، إذ لم يكن شهر رمضان هنا – في الأكثر – طرفاً رئيساً في النصوص الشعرية كما في المحور الأول، بل يرد ذكره عَرَضاً في الأبيات الشعرية لأغراض أُخَر سنتعرّفها فيما سيأتي.

ففي غرض المديح استثمر الشعراء شهر رمضان ؛ بوصفه أسلوباً مميزاً، متخذين منه وسيلة مهمة للوصول إلى الغاية المنشودة، أَلَا وهي إرضاء الممدوح بما ينشدونه إيّاه، فتنوّع الأفكار والأساليب الشعرية يعمل على شدّ انتباه الممدوح ؛ لضمان الحصول على الجائزة التي يتوقعها الشاعر، فعلي بن جبلة يدخل على ممدوحه حُميد الطوسي في أوّل يوم من شهر رمضان، ويمدحه، بقوله:

جعلَ اللهُ مدخل الصومِ فوزاً لحُميدٍ ومُتعةً في البقاءِ[٤١]

فنلحظ إفادة الشاعر من مناسبة دخول شهر رمضان، ليمدحه بما يتناسب مع واقع الحال، فجعل مطلع قصيدته دعاءً لممدوحه، يتضمن ذكر شهر الصيام، الذي أراده الشاعر إنْ يغدو فوزاً لممدوحه، ومتعة له في البقاء.

وحين عزم ممدوح أبي تمام على السفر في شهر رمضان، أوحى للشاعر أنْ يفيد من شهر الصيام في مدحه، والشكوى من فراقه، فوصف نفسه بالصيام عن مدح غيره، وبذلك يكون له صيامان، الأول: صيام عن الطعام والشراب، والثاني: صيام عن المديح إلى حين عودة ممدوحه، فضلاً عن أنّ مضمون قوله يدلّ على الشكوى من فراقه، وفي ذلك دلالة على تعلّق الشاعر به، قال:

لأُودِّعنَّكَ ثُمّ تَدْمعُ مُقْلَتِي إنّ الدُّمُوعَ هيَ الوَدَاعُ الثّاني

وأصُومُ بَعْدَكَ عن سِواكَ وأغتدي مُتَقَلِّداً صَومَينِ في رَمَضانِ[٤٢]

ويتخذ البحتري من يوم عيد الفطر أداةً يمدح بها أبا نهشل بن حُميد، فيقدم تهنئته لممدوحه بهذا اليوم، مشبِّهاً يوم العيد بالممدوح، فهو يوم مفضّل لدى الناس، كما أنّ الممدوح مفضّل لديهم بالنسبة لآل حُميد وآل عبد الحميد، فيقول:

قد تَقَضَّى الصِّيامُ عَنكَ وعَنَّا فَتَهَنَّا حُلولَ هذا العِيدِ

يَومُ فِطْرِ الأيّامِ مِثلك في (آ لِ حُميدٍ) و(آلِ عبد الحميد)[٤٣]

وفي قصيدة البحتري المشهورة في مدح المتوكل؛ ووصف خروجه يوم العيد، نجد الشاعر ينعت ممدوحه بأنّه أفضل صائم، فقد أدّى الصوم في شهر رمضان على أتمّ وجه، بحسب ادّعائه، لذا يدعو له بيوم الفطر ؛ لكونه يوماً محبوباً ومرغوباً فيه من لدن الجميع:

بـــالبرِّ صُـــمْتَ، وأنـــتَ أفضـــلُ صـــائمٍ وبَســـــنَّةِ اللهِ الرَّضـــــيَّةِ تُفْطِـــــرُ

فـــانْعَمْ بيـــومِ الفِطْـــرِ عينـــاً إنَّـــهُ يـــومٌ أغـــرُّ مـــن الزَّمـــانِ، مُشَـــهَّرُ(٤٤)

والظاهر أنّ الدعاء كان أبرز ما يتبادر إلى أذهان الشعراء في شهر رمضان، وكذلك في يوم عيد الفطر، فالشاعر عبيد الله بن عبدالله بن طاهر يدعو لممدوحه بأنْ يهنئه الله تعالى بدين الهدى وشهر الصيام، قائلاً:

يـــــاوليَّ الإمـــــام هنّـــــأك اللّـــــ ـــهُ بـــدين الهـــدى وشـــهر الصـــيام (٤٥)

ولم يختلف تفكير الصنوبري عن تفكير سابقيه من الشعراء في طريقة استثمار شهر الصيام في التقرّب إلى الممدوح، ومحاولة كسب رضاه، فهو الآخر يستثمره في المدح والتهنئة، مخاطباً الممدوح بأنه صام بالسعد شهر رمضان، ويفطر بالسعادة، وكان تقيًّا فيما بينهما، ثم يدعو له بأنْ يُعَمَّر مقبول الصيام، متجنِّباً للآثام، فضلاً عن دعائه له بأن يكون آمناً من كلّ ما يحذره، إذ قال:

بالسَّـــعْدِ صُـــمتَ وبالســـعادةِ تُفْطِـــرُ وعلـــى التُّقَـــى تَطـــوِي الصّـــيامَ وتَنْشُـــرُ

عُمِّـــرْتَ مقبـــولَ الصـــيام مجنَّـــبَ الـــ آثـــامِ مـــادام الصّـــيامُ يُعَمَّـــرُ

وَفَّيْـــتَ هـــذا الشَّـــهْرَ حـــقَّ صـــيامِهِ وقيامِـــهِ فـــي الأمـــنِ ممّـــا تَحْـــذَرُ(٤٦)

وتشتدّ المبالغة في بعض الأحيان لدى بعض الشعراء حين يقدمون مدائحهم، ومنهم الصنوبري نفسه، الذي شبّه فضل ممدوحه بفضل شهر رمضان على الشهور الأُخَر، وتمادى أكثر من ذلك، حين شبّه فضله بفضل ليلة القدر بالنسبة إلى ليالي شهر رمضان الأُخَر، وذلك في قوله:

نلـــتَ مـــن ذا الصـــيام مـــا ترتجيـــه ووقـــــاك الإلـــــه مـــــا تتّقيـــــه

أنـــتَ فـــي النـــاس مثـــلُ ذا الشـــهر فـــ ي الأشـــهر بـــل مثـــل ليلـــة القـــدر فيـــه(٤٧)

ولا يخفى على المتلقي أنّ مثل هذا المديح يبعث السأم؛ لكونه خارجاً عن طبيعة المديح المرغوب فيها ؛ فالمبالغة كانت عنوانه، والنفاق واضح في المعاني التي لا تناسب ممدوحاً اعتيادياً من سائر الناس، فتشبيه الممدوح بشهر رمضان، ثم بليلة القدر فيه، من ناحية الفضل، أمرٌ غير مقبول لدينا.

ويهنئ التهامي ممدوحه بقدوم العيد، بعد انقضاء أيام شهر رمضان التي ودّعته بالدعاء من الله تعالى، طالبة له السعادة والهناء، مدَّعياً (أي الشاعر) أنّ أيام شهر رمضان قد كسبت الرفعة والبركة من الممدوح، مسوّغاً قوله بتشبيه احتجاجي، يتضمّن تمثيل الممدوح بالمسك الذي ينشر عطره في المكان الذي يجاوره، فيقول:

ليهنـــك عيـــدٌ قـــد أطلـــت ســـعوده وشـــهرُ صـــيام ودّعتـــك أواخـــره

وقـــد كســـبتْ أيّامُـــهُ منـــك رفعـــةً كذي المِسْكِ يُعدي ريحُـهُ مَن يجاوره[٤٨]

وتتوالى التهاني للممدوحين من لدن الشعراء العباسيين، سواء بقدوم العيد، أو بشهر الصيام، فهذا الشاعر ابن أبي حصينة يهنئ ممدوحه بالشهر الذي برّ سعيه، وزكا صيامه، فضلاً عن إعطاء صورة مثالية للممدوح فيه، فهو أقام صلاته فيه، وكان كريماً جدًّا، فنال صفتين مميّزتين فيه، أَلا وهما الأجر، والذكر الجميل، فهذا واضح في قول الشاعر:

هَنيئـاً لـهُ الشَّـهْرُ الـذي بَـرَّ سَـعْيُهُ بـــه وزَكَـــا عنـــدَ الإلـــهِ صِـــيامُهُ

إذا قـــامَ فيـــه للصَّـــلاةِ وللنَّـــدى حَـوَى الأجْـرَ والـذِّكْرَ الجميـلَ قيامُـهُ[٤٩]

كانت النصوص السابقة كلها متعلقة باستثمار شهر رمضان، أو هلال عيد الفطر، في توجيه المدائح التي لحظنا المبالغة في بعضها، أمّا فيما يتعلّق بغرض الغزل، فوجدنا بعض الشعراء قد أفادوا من شهر رمضان أيضاً، فمن طريقه تكلموا على مغامراتهم، محاولين التوفيق بين الغزل والشهر الفضيل، وقد أساؤوا في بعض ما قالوه كما سنرى.

وأوّل المسيئين في استعمال شهر رمضان في غرض الغزل، بشار بن برد، الذي ينطق لسانه فتوى خاصة به، يدّعي فيها أنه لا يَعُدّ ترك الصلاة والعزوف عن الصيام من الأمور المنكرة في حال التواصل مع الحبيبة، لاسيما حبيبته أم محمد، قائلاً:

لَعَمْـــرُكَ مـــا تَـــرْكُ الصَّـــلاةِ بمُنْكَـــرٍ ولا الصَّـــوم إنْ زارَتْـــكَ (أُمُّ مُحَمَّـــدِ)[٥٠]

ولكي يؤكد الشاعر كلامه في أذهان متلقيه، يعمد إلى القَسَم (لَعَمْرُكَ)، وهذا القَسَم لا يدلّ إلّا على تمادي الشاعر في عدم احترامه لركنين مهمين من أركان الإسلام، ففي بَيتَيه معصية كبيرة، وهو يعلم بها، لكونها جزءاً من زندقته المعروفة، إلّا أنّه يحاول نشرَ فكره المسوم على نطاق واسع، ومساحة أكبر.

ولعلّ تمادي بشار بن برد يبدو أقلّ شرًّا لدى المتلقي، فيما لو اطلع على أبيات أبي تمّام، التي أعلن فيها عن لهوه مع غلام جميل، الأمر الذي أدى به إلى الإفطار فيه، بعد أنْ كان صائماً، وذلك بعد وصفه لذلك الغلام بالجمال، إذ قال:

لا تُصْـــــــــغِيَنْ لِقَبِـــــــــيحٍ يقولُـــــــه فيـــــكَ قَـــــومُ

وأهْيَـــــفٍ كمُنَـــــى النَّفْـــــسِ لـــــيس يُغْلِيـــــه سَـــــوْمُ

وَسْـــــنانُ فـــــي مُقلَتَيـــــهِ نـــــومٌ ومـــــا ثـــــمَّ نَـــــومُ

أفْطَـــــرْتُ فيـــــهِ وقـــــد كـــــا نَ قبلَـــــهُ لـــــيَ صَـــــومُ(٥١)

وعلى النحو هذا يعلن بعض الشعراء العباسيين عن عدم احترامهم لشهر الصيام، الذي لا يدلّ إلّا على قلّة حيائهم وعدم احتشامهم، فضلاً عن عدم خوفهم من ارتكاب المعاصي، ومن ثمّ فهم لا يبالون بما ستؤول إليه أحوالهم، ومن أولئك الشعراء ابن بسّام، الذي عمد إلى ارتكاب المعصية لا في أيام شهر رمضان الاعتيادية، وإنما جعلها – متعمّداً– في ليلة القدر، فهو يرتكب المعصية مع امرأة في هذه اللّيلة المباركة، وممّا يدلّ على استهزائه وعدم احترامه لهذه اللّيلة، هو أنّه يعترف في نهاية مقطوعته بأنّه باء بارتكاب الإثم ؛ في الوقت الذي أدى فيه الآخرون قيام تلك اللّيلة، وحقّقوا فيها رضا الله تعالى عنهم، يقول:

سَـــقْياً لِشَـــهْرِ الصَّـــومِ مِـــن شَـــهْرِ عنـــدي لـــه مـــا شـــاءَ مـــن شُـــكْرِ

كـــمْ مِـــن عَزيـــزٍ فُزْنـــا بـــهِ أنهضَـــهُ اللّيـــلُ مـــن الـــوَكْرِ

ومِـــن إمـــامٍ كـــان لـــي وَصْـــلُهُ إلـــى كَحِيـــلِ العَـــينِ بالسِّـــحْرِ

لـــو كـــان يـــدري بالـــذي خَلْفَـــهُ أعجلَـــهُ ذاك عـــنِ الـــوِتْرِ

وخُلّـــةٍ زارَتْـــكَ مشْـــتاقَةً فـــي ليلـــةِ القَـــدرِ علـــى قَـــدْرِ

فانصـــرفَ النّـــاسُ بمـــا أمّلـــوا ويُـــؤْتُ بالآثـــامِ والـــوِزْرِ(٥٢)

ويلجأ الصنوبري إلى الاستعانة بهلال الفِطر ؛ ليتخذه حجّة مناسبة للتغزل بحبيبته من طريقه، فيُبدي ملامح جمالها ويتغنّى بها، مدَّعياً أنّ وجهها الجميل كان فكراً له قبل بزوغ هلال الفطر، ثم يستمر في الحديث عمّا يشعر به معها، إلى أنْ يعلن عن موقفه الرافض لهجرها بأيّة حال من الأحوال، حتى لو كان موته بديلاً عن ذلك الهجر، قال:

أتَـــزْعُمُ أنّ الفِطْـــرَ طَوَّقَنـــا شُـــكْراً ووجهُـكَ قبـلَ الفطـرِ كـان لنـا فطـرا

هِـلالٌ بـدا إثْـرِ بَـدْرٍ ومَـن رأى الـ هـلالَ فـأحرى أنْ يكـونَ رأى البـدرا

لقـد خلـتُ شـهرَ الصّـومِ يومـاً ولـم أَزَلْ إذا صُـمْتُ يومـاً واحـداً خلتُـهُ شـهرا

واو أنّ نفســي خُيِّــرَتْ بــين هجــركمْ مُنـاي وبينَ الموتِ ما اختارتِ الهجرا(٥٣)

ويتخذ الصاحب بن عباد من أُسلوب الحوار مع حبيبته مرفأً لترسو فيه سفينته في حديث العشق والهوى، فهو يطلب من الحبيبة زيارته، فتُجيبه بسؤال مضمونه أنّهما في شهر رمضان، فيردّ عليها بسؤالٍ هو الآخر، يتضّمن كيفية صيامها عن عمل البرِّ والإحسان، في كناية عن بذل الحبّ له، ومن ثمّ نراه مطالباً إيّاها التوفيق بين الحالين، فلها أنْ تصوم، وتزوره ليلاً في الظلام الشديد، على أنْ تحسب يوم زيارتها له يوماً كان في تعداد أيام شعبان، وربما يكون في الأسلوب الشعري هذا نوع من المداعبة أو التلّطف، ولم يكن على سبيل الحقيقة، فطبيعة نظم الأبيات توحي لنا بهذا الشعور الذي يتّضح في قوله:

راســلتُ مَــن أهــواهُ أطلــبُ زَوْرَةً فأجــابني: أوَ لســتُ فــي رمضــانِ؟

فأجبتُــهُ والقلــبُ يخفــفُ صــبوةً أتصــومُ عــن بــرٍّ وعــن إحســانِ؟

صــمْ إنْ أردتَ تَحَرُّجــاً وتَعَفُّفًــا عــن أنْ تكــدَّ الصَّــبَّ بــالهجرانِ

أو لا فزرنــي والظــلامُ مُجَلِّــلٌ واحسَــبْهُ يومــاً مــرَّ فــي شَــعْبانِ(٥٤)

كما وُظِّفَ شهر رمضان في غرض الهجاء، ولكن بنطاق ضَيِّق ؛ لكون الهجاء غرضاً مرغوباً عنه، فهو لا يتناسب مع شهر رمضان المبارك، ذي الفضائل التي لا يُحْصَى عددها، ولكن استطاع بعض الشعراء استثماره في هذا الغرض، فرسموا صوراً لمهجوّيهم من طريق المناسبة بين معاني اهاجيهم وشهر رمضان، ومنهم بشار بن برد، الذي هجا رجلاً يدعى أبا زيد، إذ اتّهمه – في بيتين – بأنه زنى في ليلة القدر، وأنّه لم يَرْعَ حرمة الشهر، ولم يَخْشَ الله (سبحانه وتعالى)، قائلاً:

أَلَا إنَّ أبــــــا زيــــــدٍ زَنَــــى فــــي ليلــــةِ القَــــدْرِ

ولــــم يَــــرْعَ تعــــالى اللّــــ ــــهُ رَبّــــي حُرْمَــــةَ الشَّــــهْرِ(٥٥)

في الوقت الذي هجا فيه الصاحب بن عباد قاضياً أخطأ في تحديد يوم شهر رمضان، كما وقع في الخطأ نفسه في تحديد أوّل أيام العيد، ممّا أدّى إلى إفطار الناس في يوم رمضاني، وفي

الوقت نفسه أدّى إلى صيامهم في أوّل أيام العيد، فكان ذلك مدعاة للشاعر إلى هجائه، ووصفه بالعمى ؛ لكونه لم يتوصّل إلى رؤية الهلال بدقّة، فقال:

ياقاضـــــــياً بـــــــاتَ أعمـــــــى عـــــــن الهِـــــــلالِ السّـــــــعيدِ

أفطـــــــرتَ فـــــــي رمضـــــــانٍ وصُـــــمْتَ فـــــي يـــــومِ عيـــــدِ(٥٦)

أمّا مهجو أسامة بن منقذ، فتبدو أيّامه طاهرة من المعاصي مثل شهر رمضان، غير أنّ الجوع والعطش قد أصابا الناس في عهده، فكان أسلوب الذّمّ بما يشبه المدح حاضراً في بَيْتَي الشاعر اللذين يقول فيهما:

أميرُنـــا زاهـــدٌ والنّـــاسُ قـــد زَهِـــدُوا لـــهُ، فكـــلٌ علـــى الطّاعـــاتِ مـــنكمشُ

أيّامُـــهُ مثـــلَ شَـــهرِ الصَّـــومِ طـــاهرةٌ مـن المعاصي، وفيها الجوعُ والعَطَشُ(٥٧)

أمّا غرض الرثاء، وتوظيف شهر الصيام فيه، فلم نعثر إلّا على نصٍّ يتيم للصنوبري، يرثي فيه ابنته، إذ خطرت على فكره في شهر رمضان، فخاطبها متسائلاً عن غيبتها عنه – بحزن شديد– وقد حضر شهر رمضان، ويذكر أنّها كانت أُنسهم فيه، ثمّ يعدّد صفاتها، فهي كانت تسهر في ليالي الشهر، ولا تنام، فضلاً عن عكوفها على قراءة سور القرآن الكريم، وحرصها على الدعاء فيه، وذلك في قوله:

يـــــاابنتي أيـــــنَ غِبـــــتِ عـــــن رمضـــــانٍ وقـــــد حَضَـــــرْ

فلقـــــــد كنـــــــتِ أُنســـــــنا فـــــــي عشـــــــاياهُ والبكـــــــرْ

ولقـــــد كنـــــتِ بعـــــتِ نَـــــو مَ لياليـــــــــــه بالسَّـــــــــــهَرْ

واعتكـــــــافٍ علـــــــى الـــــــدعا ءِ أو الـــــــدرس للسَّـــــــوَرْ(٥٨)

وبعد هذا التأبين الحزين، يلجأ الأب إلى إنطاق ابنته، جاعلاً إيّاها تردّ عليه، قائلةً: إنّ الأموات لا علم لديهم بمجيء شهر رمضان، ولا يرون هلال الفطر، وليس لديهم فطور أو سحور، كما أنهم لا يستعدّون لاستقبال العيد كما كانوا أحياءً، وهي لا تتوانى عن إخبار أبيها أنّ محاسنها قد درست وانمحت الصورة الجميلة التي كانت تبدو عليها، وتستمر في تعداد صفات أو خصائص عالم الأموات إلى نهاية القصيدة التي لا تثير في قارئها أو سامعها إلّا مشاعر الحزن والألم على كلّ مَن فقدهم من الأقارب والأصحاب ؛ بسبب المصير الذي آلوا إليه عن الأسلوب الحزين في نظم الأبيات، والهدوء الذي ساد موسيقاها، الذي يبدو في قول الشاعر:

يـــــاأبي لـــــيس عنـــــد مَـــــن ... مـــــاتَ علـــــمٌ ولا خَبَـــــرْ
لا هِـــــلالُ الصّـــــيامِ يُـــــرْ ... عَـــــى ولا الفطـــــرُ ينتظـــــرْ
لا فطـــــــورٌ ولا ســـــــحو ... رٌ حـــــلا العيـــــدُ أو أَمَـــــرّْ
دَرَسَـــــتْ يـــــاأبي المحـــــا ... ســـــنُ وانْمَحَّـــــتِ الصُّـــــورْ
نحـــــنُ فـــــي عـــــالمٍ طـــــوى ... صَـــــرْفُهُ البـــــدوَ والحَضَـــــرْ
فـــــي ثَـــــرًى لا يُحَـــــسُّ فيـــــ ... ـــــهِ بمَـــــن زارَ أو هَجَـــــرْ[٥٩]

لقد كانت تلك أبرز الأغراض الشعرية التي وظّف فيها الشعراء شهر رمضان، مستفيدين من بعض فضائله وخصائصه في كلامهم الذي نظموه في تلك الأغراض، سواء من حيث الايجاب أو السلب كما ذكرنا سابقاً.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم، أفضل المصادر وأكرمها.
- ابن بسام، حياته وشعره، ضمن: شعراء عباسيون، د. يونس أحمد السامرائي، ج٢، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- أبو علي البصير، حياته وشعره، ضمن: شعراء عباسيون، د. يونس أحمد السامرائي، ج٢، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، ط١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- أدب الطاهريِّين في خراسان والعراق، د.مُنجي الكعبي، أطروحة دكتوراه، ملحق الدراسة المنشورة بالفرنسية، جامعة باريس- السربون- كلية الآداب والعلوم الانسانية، مطبعة الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس، د.ت.
- الحارثي، حياته وشعره، جمع وتحقيق ودراسة: زكي ذاكر العاني، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والاعلام، دار الحرية للطباعة، ١٩٨٠م.
- ديوان ابن أبي حصينة، سمعه وشرحه: أبو العلاء المعري، حققه: محمد أسعد طلس، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، المطبعة الهاشمية بدمشق، ١٣٧٥هـ- ١٩٥٦م.
- ديوان ابن رشيق القيرواني، جمعه ورتّبه: د. عبد الرحمن ياغي، دار الثقافة، بيروت، د.ت.
- ديوان ابن الرومي، تحقيق: د. حسين نصّار، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، شارك في تحقيق الجزء الأول: د. سيدة حامد عبد العال، منير محمد

المدني، ج٥، طبعة ثالثة منقحة، شارك في تحقيق الجزء الخامس: وفاء محمود الأعصر، سيدة حامد عبد العال، محمد حسن أبو حسن.

- ديوان ابن الساعاتي، عُني بتحقيقه ونشره: أنيس المقدسي، الطبعة الأميركانية- بيروت، ١٩٣٩.
- ديوان ابي تمام، بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف بمصر، ج٣، ط٢، ١٩٧٠، ج٤، ١٩٦٥.
- ديوان أبي دلامة الأسدي، إعداد: د. رشدي علي حسن، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت، دار عمار، عمان- الأردن، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.
- ديوان أبي الهندي وأخباره، صنعة: عبدالله الجبوري، منشورات مكتبة الأندلس، بغداد، مطبعة النعمان- النجف الأشرف، ط١، ١٣٨٩هـ- ١٩٦٩م.
- ديوان أُسامة بن منقذ، حقّقه وقدّم له: د. أحمد أحمد بدوي، حامد عبد المجيد، عالم الكتب، د.ت.
- ديوان البحتري، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف بمصر،ج٢، ١٩٦٣، ج٣، ١٩٦٥، ج٤، د.ت.
- ديوان بشار بن برد، تقديم وشرح وتكميل: فضيلة الاستاذ محمد الطاهر بن عاشور، د.ط، د.ت.
- ديوان التهامي، شرح وتحقيق: د. علي نجيب عطوي، منشورات: دار ومكتبة الهلال، بيروت- لبنان، ١٩٨٦.
- ديوان الخالديَّين، أبي بكر محمد وأبي عثمان سعيد ابني هاشم الخالدي، جمعه وحقّقه: د. سامي الدهان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، دمشق، ١٣٨٨هـ-١٩٦٩م.
- ديوان الصاحب بن عباد، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، منشورات دار القلم، بيروت- لبنان، مكتبة النهضة – بغداد، ط٢، ٣٩٤- ١٩٧٤م.
- ديوان الصنوبري (من حرف الراء حتى حرف القاف)، حقّقه: د. إحسان عباس، نشر وتوزيع: دار الثقافة، بيروت- لبنان، مطابع غريّب ببيروت، ١٩٧٠.
- ديوان الصوري، تحقيق: مكي السيد جاسم، وشاكر هادي شُكر، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والاعلام، دار الرشيد للنشر، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٤٠١هـ-١٩٨٠م.

- ديوان الطغرائي، تحقيق: د. علي جواد الطاهر، د. يحيى الجبوري، الجمهورية العراقية، وزارة الاعلام، دار الحرية للطباعة – بغداد، ١٣٩٦هـ- ١٩٧٦م.
- ديوان عُلية بنت المهدي (اخت هارون الرشيد)، جمعه وحقّقه: د. سعدي ضنّاوي، دار صادر- بيروت، ط١، ١٩٩٧.
- ديوان القاضي الفاضل، تحقيق: د. أحمد أحمد بدوي، مراجعة: إبراهيم الابياري، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الادارة العامة للثقافة، الناشر: دار المعرفة، القاهرة، مطابع دار الكتاب العربي بمصر، ط١، ١٩٦١.
- ديوان كشاجم، دراسة وشرح وتحقيق: د. النبوي عبد الواحد شعلان، الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، ط١، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.
- زهر الربيع، السيد نعمة الله الجزائري، دار هشام، بيروت- لبنان، د.ت.
- شعر ابن طباطبا العلوي، تحقيق وتقديم: جابر الخاقاني، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٥.
- شعر ابن لنكك البصري، حققه وقدّم له: زهير غازي زاهد، مستل من مجلة الخليج العربي، ع١، السنة الأولى، طبع بمطبعة حداد، البصرة، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.
- شعر ابن المعتز، صنعة: أبي بكر محمد بن يحيى الصولي، دراسة وتحقيق: د. يونس أحمد السامرائي، منشورات وزارة الثقافة والفنون – الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة – بغداد، ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.
- شعر علي بن جبلة المعروف بالعكوّك، تحقيق ودراسة: أحمد نصيف الجنابي، مطبعة الآداب في النجف الأشرف، ١٣٩١هـ- ١٩٧١م.
- عبيد الله بن عبدالله بن طاهر، حياته وتحقيق ما تبقى من شعره، د. قحطان عبد الستار الحديثي، مجلة كلية الآداب/ جامعة البصرة، ع٢٠، السنة السادسة عشرة، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- محمد بن كناسة الأسدي، شعره، نصوص باقية من كتابه: الأنواء، محمد قاسم مصطفى، مجلة آداب الرافدين، تصدر عن كلية الآداب/جامعة الموصل، ع٦، جمادى الأولى ١٣٩٥هـ- حزيران ١٩٧٥م.

الهوامش:

(١) البقرة/ من الآية ١٨٥.
(٢) البقرة/ من الآية ١٨٥.
(٣) البقرة/١٨٣.
(٤) زهر الربيع/٦٩.
(٥) ديوان أبي دلامة الأسدي/٤٥.
(٦) م.ن/ ٦١، الحَرَش: الخشونة، والعرصة: الساحة.
(٧) محمد بن كناسة الأسدي، حياته وشعره، نصوص باقية من كتابه: الأنواء/٣١١.
(٨) ديوان عُلية بنت المهدي/٣١.
(٩) شعر ابن المعتز ٢/٢٣٨.
(١٠) شعر ابن لنكك البصري/ ٢٣- ٢٤.
(١١) القدر/١-٥.
(١٢) ديوان أبي دلامة الأسدي/٨٣.
(١٣) م.ن/ ٨٧، العلاب: جمع علبة، وهي قدح ضخم من جلود الإبل، أو هي قدح من خشب.
(١٤) ديوان بشار بن برد ٤/١٧٥، الجهد: التعب والعناء.
(١٥) أبو علي البصير، حياته وشعره، ضمن شعراء عباسيون ٢/٢٨٥، الشنعاء: القبيحة، ننعر: نصوّت ونصيح بالخياشيم.
(١٦) شعر ابن المعتز ٢/٢٣٩.
(١٧) ديوان الصوري ١/٣٨٠.
(١٨) شعر علي بن جبلة المعروف بالعكوّك /١٨٤.
(١٩) م.ن /١٩١- ١٩٢.
(٢٠) شعر ابن المعتز ٢/١٠٠.
(٢١) م.ن ٢/٥٦٩.
(٢٢) م.ن /٥٩١، والبيت منسوب لابن طباطبا العلوي في شعره/٥٨.
(٢٣) ابن بسّام، حياته وشعره، ضمن: شعراء عباسيون ٢/٤٦١.
(٢٤) ديوان كشاجم /٣٦٩.
(٢٥) ديوان الخالدِيَّين/٨١.
(٢٦) ديوان الطغرائي/٣٦٤.
(٢٧) ديوان القاضي الفاضل ٢/٣٣٥، وأُطلق من قيد: أي لم يعد يسير ببطء كأنّه مقيد، فتر: ضعف.

(٢٨) ديوان أبي الهندي وأخباره/٤٧.

(٢٩) ديوان البحتري ١٦٥٢/٣.

(٣٠) م.ن ٢٢٧٠/٤، يعتلج: يصطرع.

(٣١) شعر ابن المعتز ٢٢٠/٢.

(٣٢) ديوان الصاحب بن عباد /٢١٣- ٢١٤.

(٣٣) ديوان البحتري ١٩٠٠/٣، اللّهوات: جمع اللّهاة، وهي اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم، الربعة: الوسيط القامة، يقال للمذكر والمؤنث.

(٣٤) ديوان ابن الرومي٢٠٥/١.

(٣٥) م.ن١٨٣٧/٥، والأبيات مع بعض التغيير فيها منسوبة للحارثي، ينظر: الحارثي حياته وشعره/ ٨٥- ٨٦.

(٣٦) ديوان ابن الرومي ١٨٩٨/٥.

(٣٧) م.ن ٢٠٤٠/٥.

(٣٨) شعر ابن المعتز ١٦٨/٢- ١٦٩، البربط: العود، معرّب بربط، أي صدر الأوز لأنه يشبهه.

(٣٩) ديوان ابن رشيق القيرواني/ ٢٦.

(٤٠) ديوان ابن الساعاتي ٣٩٩/٢.

(٤١) شعر علي بن جبلة المعروف بالعكوّك /٨٦.

(٤٢) ديوان أبي تمّام ٣٤٠/٣.

(٤٣) ديوان البحتري ٦٩٢/٢.

(٤٤) م.ن ١٠٧١/٢.

(٤٥) عبيد الله بن عبدالله بن طاهر: حياته وتحقيق ما تبقى من شعره/٥٥، وينظر: أدب الطاهريِّين في خراسان والعراق /٢٥٨.

(٤٦) ديوان الصنوبري /٢٩- ٣٠.

(٤٧) م.ن /٥١٣.

(٤٨) ديوان التهامي/ ٢٢٥.

(٤٩) ديوان ابن أبي حصينة ١٨٥/١.

(٥٠) ديوان بشار بن برد ١٤٨/٢.

(٥١) ديوان أبي تمام ٢٦٩/٤.

(٥٢) ابن بسّام، حياته وشعره ضمن: شعراء عباسيون ٤٢٨/٢- ٤٢٩، الخُلَّة: الصديقة.

(٥٣) ديوان الصنوبري/٤٤- ٤٥.

(٥٤) ديوان الصاحب بن عباد /٢٩٧.
(٥٥) ديوان بشار بن برد ٦٦/٤.
(٥٦) ديوان الصاحب بن عباد/ ٢١٦.
(٥٧) ديوان أسامة بن منقذ/١٥٨.
(٥٨) ديوان الصنوبري/١٠٣.
(٥٩) م.ن/ ١٠٣.